واحر قلباه

"رؤية نقدية"

د. فضل بن عمار العماري

واحـر قلبـاه ممن قلبـه شبـم ومن بجسمي وحالي عنده سقم[1]

يبدأ المتنبي قصيدته وهو منفطر القلب ومحطم القوى ، منهزم أي انهزام . موقف حاسم من المواقف الشداد التي يتعرض لها هذا الهائم في طريق اللانهاية . ماأقسى اللحظة التي يرى فيها الإنسان كل آماله وأحلامه وهي تتهاوى وقد كان يحس أنه ألقى عصا الترحال واستقر به المقام بعد طول عذاب وعناء . إنها لمأساة فاجعة لايحتملها إلا من اعتاد على أمثالها ، أو من هو مهيأ لها ، بل إن المأساة لتبلغ قمتها حين يصبح ذلك البنيان المتهدم مرتبطاً بعلاقة إنسانية اتصلت فيها المشاعر واتحدت فيها الأهداف حين تصبح العلاقة التي كان أساسها التوحد في الشخصية بين شخصية الشاعر وشخصية الملكي الصديق قد وصلت حد القطيعة والانبتات . في هذه اللحظات لحظات تأزم المأساة ، لحظات اللاعودة ، واللاعلاقة ، تنبعث الهموم من سكينتها وتتفجر الآلام من أعماقها . ولا يمتلك الشاعر وهو يقف أمام المفاجأة إلا أن يندهش ، ويعجب متأثراً ، ثم يصرخ ويستغيث متسائلاً في حيرة

قلقة وفي انبهات مبهور[٢]. المتنبي ذلك الإنسان الذي ظن أن عذاباته قد وصلت حدها الذي لا رجعة منه . وقد اعتقد في أعماق نفسه أن سيف الدولة خدنه وصاحبه بل حبيبه الذي اصطفاه واختاره ، لن يغدر به مثل بدر بن عمّار الذي انقلب عليه نتيجة لتدخلات خصومه وحساده[٣]، معتقداً أن سيف الدولة أكبر من الاستماع إلى النمائم أو الوشايات مهما كانت مصداقيتها ، وهو يعتقد أن هناك رباطاً مقدساً بين الاثنين يصعب أن ينفك أو ينفصم حتى لو أن الطرف الآخر لايبدو عليه أنه يظهر احساساته للمتنبي صاحبه . إذن ، فالمسألة الفاجعة التي لم يستطع المتنبي أن يتحملها هي أنه لم يكن على استعداد قط لمثل هذا الموقف ، ربما كان على استعداد لذلك مع بدر أو غير بدر ، أما سيف الدولة فلا وألف لا . المتنبي متشبث بسيف الدولة أو هو في الواقع يعتقد أنهما متعلقان ببعضهما ببعض ، فلا انفكاك أو انفصام . ولذا فقد كان من الصعب عليه أن يستسلم لهذا الواقع المفروض . إنه لايصدق أن سيف الدولة يقدم على إعلان القطيعة بشاعره . إن رفضه لهذا الواقع كان نابعاً من تساقط الصورة المحفورة في خياله لسيف الدولة ، أو عن تبخر تلك الرؤى التي كان يضع سيف الدولة في إطارها جاعلاً نفسه تعيش على أحلامها وأمانيها ، أو من ناحية أخرى ، عن الخيبة المريرة التي صدم بها بعد أن اندحرت الشخصية التي تقمصها ، شخصية البطل العربي المقدام الفارس الشجاع والشاعر الهمام . كيف ، إذن ، تكون نتيجة كل ذلك على نفيسة البطل والفارس والشجاع والشاعر ــ الظل ؟ إنها ستكون حتماً الفجيعة التي غص بمرارتها وتجرع عقابيلها . في هذه اللحظة لحظة تهدم كل الأخيلة والتصورات ، لا يسعه إلا أن يشهق شهقة الألم والحرمان معبراً عن المأساة وبعد الفاجعة . إن مصيبة المتنبي لم تأت كما يظن من حب لا مرأة . إذ يبدو أنه لو كان كذلك لسمعنا صوتاً آخر منه ، يتوجه لامرأة . ولكن الصوت ههنا صادر من رجل فيه كل خصال الرجولة ، إنه سيف الدولة . والمتنبي هنا ليس رجلاً كما تصفه بعض الروايات محباً للمال بخيلاً به ، بل هو رجل محب للرجولة بخيلاً بها . الرجولة في ميزانه لا تعادلها رجولة . الرجولة هي محور الارتكاز الذي يدور حوله شهيد الرجولة .

وقفة المتنبي لم تكن بكاء على خولة ، ولم تكن وقفة الرجل المتهافت على حطام الدنيا وتفاهتها . بل وقفة الرجل الذي يعيش الرجولة ويحلم بها . وكون الرجولة واقعاً أمر يسير ، أما أن تكون إضافة إلى كونها واقعاً ، حلماً يعبث بالرجل ويؤرق لياليه فهذا أمر صعب

وشديد . ولذلك فهو يعيش حياتين متلازمتين ، حياة الواقع كإنسان يعيش حياته اليومية وحياة الفنان الذي يحاول أن ينقل واقعه إلى مستوى أحلامه . وعلى هذا الأساس كان قلقاً قلق الفارس يخشى على رجولته من الجرح ، وقلقاً قلق الفنان الذي ماتزال الأحلام تؤرقه وتسبب له الكثير من المشقات . أما سيف الدولة فهو يبادل الشاعر جانبه المعاش ولكنه منفصل عنه بحكم كونه قائد دولة لا تترك له أمور الحرب والسياسة وقتاً للتفكير في أحلام هذا الشاعر ، ومع هذا فهو يستمع إليه وهو ينشده فيخفف عنه مالم يستطع إدراكه ، ويبث فيه القوة والعزيمة مجدداً فيه الحيوية والنشاط والأمل بمدائحه التي تخلد انتصاراته ، رجولته . الصوت والصوت هنا ليس بصوت محب لامرأة على الإطلاق . بل ربما تكون كلمة الحب أخف وطأة من كلمة العشق ، إذ المتنبي هنا عاشق لمحبوبه وَلِهٌ عليه ، وكَلِفٌ به ، هو هنا يشكو وشكواه ليست لفراق أنثى ، فالصوت الرجولي الذي ينطلق من هذه القصيدة لايتضرع لمحبوبة أو يشكو من إخلاف وعدها ليس لديه متسع من الوقت لمثل هذه الأمور ، إنه يريد أن يحقق أحلاماً وهاقد تحققت الأحلام في شخص سيف الدولة فقد فرغ هنا لمعشوقه الملهم ، المحبوب الذي تسلط على كل بواعثه ، إنه البطل سيف الدولة/ أو البطل صورة المتنبي في الخارج . لذا كانت الفاجعة بالغة حداً ضاغطاً على نفسه فجاء عتابه كما سمي قوله به ، بكاء وشجوا ، مما دعا إلى الريبة في ذلك والوهم بأن هذه البكائية بكائية على محبوب . والواقع أنها بكائية على نفس المتنبي الذي لم تسمح له الدنيا بأن يستمر فيها بعد أن قلبته كل مقلب . صرخاته تتعالى في هذه القصيدة ، وأنينه يتردد في أرجائها وبهذا الصدق العاطفي أصبحت هذه القصيدة من روائعه ، بل من عيون الشعر العربي .

يعلن منذ البداية فجيعة ، يصرخ صرخة تدوي في مكان الإنشاد إنه يبكي ، ويعلن استسلامه وضعفه لأنه خسر محبوبه ، وفقد عشقه ، فتهدمت صورته الجميلة الرائعة . بهذه الصرخة المدوية يتوجه لسيف الدولة دون غيره ممن حضر مجلسه وهو يستمع للقصيدة وقت إنشادها ، يتوجه إليه وحده في غير مباشرة ، لأنه يشكوه ويبكي على حبه الضائع له ، ليس بكاء على خولة أو غير خولة ، بل بكاء على سيف الدولة وسيف الدولة وحده لاغير ، يتوجه إليه في حزن مأسوي عميق وهو يصرخ به : واحر قلباه . عبارة واحدة أو شهقة واحدة تتحشرج في صدره ثم تنفلت مدوية خارج أسماعه . ليس صدفة البدء بـ : وا . لأنه كان

يستغيث ، كان يتمزق في داخله ، فلم يكن بد من أن تندفع الصرخة اندفاعاً محموماً من أعماق روحه المهزومة . وا : أنها ألم ، إنها مناداة بالحسرة والويل ثم ليس صدفة أن تكون (وا) بالذات دون غيرها . فاختياره لـ (وا) بالذات كان اختياراً لاشعورياً ، لأنه كان صادقاً مع نفسه وظرفه . ولعل سر خلود هذه القصيدة واحتفاظ الناس بها ، واحتفائهم بها مرجعه إلى عنصر الصدق العاطفي فيها . هو شاعر امتلك ناصية اللغة وورث جهود من سبقوه من شعراء ونقاد . وقد تضافرت هذه الذخيرة الأدبية والفنية مع الواقعة ، وعلى هذا الأساس يبدو أنه لم يكن يفكر في قصيدته هذه غير مرة هي ساعة إبداعها .

إذن ، فهو منذ البدء يندب حظه العاثر أو يبكي نفسه الحزينة ، يبكي لأن الرجل الذي عده صديقه ، أو نفسه ، دمر صورته في نفسه وحطم ذاته وهو يندب حظه كذلك لإنه بذلك موته أي موت العلاقة بينه وبين سيف الدولة ــ وهذا يعني أن الآمال ، والأحلام ، والرؤى كلها ستموت بعد أن تموت صورة البطل في خيال الشاعر . يضاف إلى ذلك أنه لم يقبل على سيف الدولة ويطول به المقام عنده إلا لأنه رأى فيه محققاً لكل إحباطاته الماضية . وعليه فعندما تنقطع العلاقة بسيف الدولة ، يتراجع إلى الوراء عائداً إلى تلك الإحباطات القديمة . والعودة تعني انكساراً في نفسه وتوسيع رقعة ذلك الشرخ المأسوي في أغوارها . ولهذا كانت إقامة المتنبي في مصر بعد لجوئه إليها نواحاً ونحيباً وكان لابد أن يموت قهراً . فقد كان باعث الندب إحساساً بالمأساة المقبلة واسترجاعاً للمآسي الماضية وعجزاً قاتلاً عن تنمية المستقبل واستشرافه ، لأن الشعور بالإخفاق كان أكبر من طاقته وإمكانياته .

والواقع أن الاحساس بالموت كان يصاحبه في كل أطوار حياته منذ نشأته كما لاحظ ذلك كثير . فلا غرابة أن يرثي نفسه قبل وفاته فيقول : واحر قلباه . ما أشد حرقة قلبه ، إن هذه الحرقة تكاد تأكل أحشاءه وتمزق نفسه . والذي يزيد من إحساسه بهذا الألم ، برود مشاعر سيف الدولة إزاءه ، وتجاهله له .

ويبدو أنه لم يكن على استعداد للقطيعة ولم يكن متهيئاً للحرمان ، بل فاجأه ذلك مفاجأة جعلته في حيرة من أمره وعتمت عليه الحياة وجعلت شعوره بالغربة يزداد عمقاً وتأثيراً ، كما عمقت في داخله شعوره بالضياع والفقدان . لقد وقف سيف الدولة موقفاً سلبياً تجاه

الشاعر ، لقد صد عنه وأشعره بأنه ليس إلا شاعراً كسائر الشعراء لا يطمح إلى تحقيق الصورة المرسومة في ذهنه عن صداقته للأمير . وبعد أن أفضى بكل آهاته وعويله في مطلع قصيدته لم يجنح بعواطفه ويسترسل فيها بل حاول أن يركزها ويثبتها ، فبدأ يتخلص شيئاً فشيئاً من نواحه المتعالي ويصوغ كلماته في قوالب تنتظم إيقاعاتها في توافق صوتي تتبادله الكسرة والفتحة وتختتمه الضمة تمد اللحن باستمرارية دائمة بحيث يظهر للقارىء ماتكنه من الكلمات من وحدات صوتية . ومع استيعاب موسيقى القصيدة ، يأتي التضعيف كمنبه أو كنبرة عالية تجعل القارىء دائماً في حالة تيقظ لأحداث القصيدة . فهو يقول :

مالي أكتم حباً قد برى جسدي وتدعى حب سيف الدولة الأمم

نلاحظ مجيء المد في بداية البيت (مالي) فقط ؛ ولكن البيت مشحون بتوترات حادة جداً . التضعيف في (حبا ، أكتم ، حب) ويبلغ التوتر أقصاه في الضغط الشديد على التاء في (اكتم) ، مما يدل على المعاناة الشديدة التي كان يعيشها . وقد جاء البيت كله دالاً على ذلك التوتر وتلك المعاناة .

لقد أوضح أن هذا الحب هو حب لسر يدركه في شخص سيف الدولة ، تغالبه نفسه التي تتوق دوماً إلى الأمجاد والبطولات ، يدرك أنه يحب أيضاً في سيف الدولة بطولته وشجاعته وإقدامه ، وهذه خصلة يمثلها في الحقيقة والواقع ويشيد بها دوماً ، وقد رآها تتحقق فعلاً في سيف الدولة ، لذا راح في البيت الذي يليه يقول :

قد زرته وسيوف الهند مغمدة وقد نظرت إليه والسيوف دم

يوضح هذا البيت شدة تعلقه بسيف الدولة ــ هو خدنه وصاحبه وصديقه الذي لا ينقطع عنه . يزوره في حالة السلم (وسيوف الهند مغمدة) ويشفق عليه ويحنو عليه ويريد أن يفتديه بنفسه (نظرت إليه)، أي كنت وقت القتال في جوف المعركة صفاً بصف مع سيف الدولة لا تهدأ نفسي ، إذ لا أبالي بنفسي ، بل أنظر خشية أن يصيبه مكروه . إنه يوم عصيب بالنسبة لنا نحن الاثنين ، والموت محدق بنا جميعاً ، فهذه السيوف التي كانت مغمدة تستل الأرواح وتنتزعها . إن مايريده في ظني من وراء قوله (وسيوف الهند مغمدة/ والسيوف دم) أمران :

الأول : أن هذه السيوف لا يهدأ لها قرار ، فما إن تغمد حتى تستل مرة أخرى الوضع وضع استعداد وقتال ونفير دائم ، إنها البطولات التي يحققها سيف الدولة حرباً فيسجلها شعراً ، وبهذا يتحقق له الناحية الحياتية كفارس مقاتل ، والناحية الفنية كشاعر طموح حالم بمثل تلك البطولات . والأمر الثاني هو أن السيوف التي تقطر دماً ليست سيوف الأعداء وإن كانت كذلك فهي ليست بالضرورة تلك ، إنما المقصود هي تلك السيوف المغمدة ، سيوف جيش سيف الدولة الظافرة المظفرة . ، ويبدو أن اعجاب المتنبي بسيف الدولة يرجع لسببين : الأول سمو سيف الدولة ومايتبع ذلك من صفاء ونقاء وبهاء ، والسبب الآخر هو بطولته ، ولذا جاء التركيز على ذكر السيوف المغمدة والمسلولة . وتحديد هذين السببين بالذات يرجع في رأيي إلى أنه يرى نفسه سيف الدولة فهما صنوان اثنان لا ثالث لهما ، وتستمر القصيدة ويستمر في إنشاده ، ثم يقول :

يا أعدل النـاس إلا في معـاملتي فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

البيت مضرب الأمثال في إساءة المعاملة وعدم الإنصاف . وكثير من الناس يردد هذا البيت في مواقف مشابهة يحسونها فيتخذون هذا البيت تدعيماً لما يقولونه ولعل السر في احتفاظ البيت بحيويته يعود إلى الصدق العاطفي الذي عبر به عن كربته . إن المتنبي في موقف مسلوب الإرادة فيه ، إنه رجل ينتظر الحكم من جلاده . إن شعوره بالعذاب النفسي في داخله جعله يرى سلبيته وضعفه أمام التحديات . إن الصدق العاطفي في هذا البيت منبعه أيضاً ذلك الحب العميق الذي يكنه لسيف الدولة ، فليست الخصومة في شيء من أمور الدنيا إنما الخصومة في هذه الشخصية العظيمة . أساس الخصومة هذا الحب . المتنبي كما جاء في البيت الأول يحب سيف الدولة بل يعشقه إلى درجة التنازع فيه . والمهم أن نلاحظ أن المتنبي لايعبأ بالناس ، خصومه ، إذ هو لايحتفل بهم على الإطلاق إنما يخاصم رجلاً في مكانته نفسها ، وفي رفعته نفسها . سيف الدولة هو المتنبي والمتنبي هو سيف الدولة . إذن ، فالتنازع ليس لشيء خارجي عنهما بل هو نابع من أحدهما . إنه نابع من سيف الدولة سيف الدولة الذي أعرض عن المتنبي لسبب ما ، قد يكون من قبيل أعراض المحبوب عن حبيبه ، وأصاب الاثنين مايصيب عاشقين حين يختلفان في وقت ما ولذا يقول : «فيك الخصام وأنت الخصم والحكم» . إن من أسرار دوام هذا البيت هو مزج العلاقة بينهما بالصورة التي يعرفها الناس

عامة عن العشاق . فكأنه في هذا البيت بالذات يتضرع إلى محبوب يغدر به وهو مستمسك به أشد الاستمساك ، ولذلك يقول :

أعيذها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

يستخدم هنا عبارة (أعيذها) وهي تنقلنا إلى ارتباط معناها بالشر كما في الآية الكريمة «قل أعوذ برب الناس ملك الناس ، إله الناس، من شر الوسواس الخناس !!» إن العلاقة بين الاثنين ليست علاقة جفاء فحسب ، بل هي علاقة عداء . لقد صرح أن هناك شراً حقيقياً بينه وبين سيف الدولة ، وهذا الشر لابد أن يكون مصدره شيئاً خطيراً ليس كما يقال عن واقعة حدثت في مجلس سيف الدولة ، بل لابد أن يكون شيئاً أخطر من ذلك . ولكن القصيدة لاتدل على أن هذا الشيء الخطير هو حب المتنبي لخولة . ولكن وكما سيتضح بعد ذلك ، كان مصدره الحساد الذين استطاعوا أن يوغروا صدر سيف الدولة عليه . والأمر الآخر هو أن المتنبي يقول : «أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم» ، بينما قال في البيتين الأولين «فيمن جسمه سقم» ، «برى جسدي» ، أي أن جسمي نحيل هزيل ، وهنا جسمه ثخين بدين ، «ورم» . هل استخدم هذه الصفة مجازاً لتأكيد معني اعتلاله ومرضه ، أم أن المعنى جره إلى ذلك ؟ ربما يكون قد وقع في تناقض ولكن حيث إن المعني يراد به الدلالة على مبلغ الضرر الذي وقع عليه ، فقد جاء ذلك تأكيداً له .

وبعد أن بين أن هناك عداء حقيقياً بينه وبين سيف الدولة ولم تُجد اعتذاراته لإنقاذ العلاقة بينهما ، لم يكن بد من أن يعلن موقفه الصريح تجاه ذلك الموقف العدائي . فإذا كان سيف الدولة حكماً فإنه لم يتصرف تصرف الحكم العدل ، ولذا فمن حق المتنبي الآن أن يثور على هذه الأوضاع الاستفزازية . ولابد أن يبصر ذلك الحكم الخصم بأنه على خطأ في جميع تصرفاته وفي هذا الموقف الذي يتخذه يتوجه بهجوم صريح لسيف الدولة قائلاً له :

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره إذا استوت عنده الأنوار والظلم
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم
أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

يقول له : إنك رجل أعمى البصيرة ولست أعمى البصر لأن لك ناظرين ولكنك لاتميز بها

الصحيح من العليل والجيد من الخبيث . إنك أشد عمى من الأعمى وذلك لعدم تفريقك الظلمات من النور . لقد نظر الأعمى إلى أدبي ، أما أنت ياصاحب العينين اللتين تنفثان غضباً لا خيراً ، فلم تنظر إليه ، أي لم تعرف قدره . بل إنك أشد من ذلك جامد فاتر ليس لديك إحساس ، فقد أسمعت كلماتي الأصم أما أنت فلم تدرك ذلك . وهكذا فالناس كل الناس يدركون قيمة هذا الشعر ، أما أنت فلا . هجوم صريح ومعاد لسيف الدولة ، إنه إعلان الخصومة من جانب المتنبي بعد أن أعلنها سيف الدولة من جانبه . ومع هذا البسط لجانب من جوانب القضية من جهة المتنبي ، فقد وقع في تناقض كالسابق . لقد قال : «أنام ملء جفوني» . فأقام نائب المصدر مقام المصدر لتوجيه الانتباه إليه وكان في البيت الأول يعلن حسرته وتألمه وماجرى له من عذاب نتيجة لعلاقته بسيف الدولة مما يستدعي السهر والأرق والقلق ، ولكنه هنا قال العكس إنه ينام غارقاً في سبات عميق . وإذا كان هناك مبرر لهذا فإنه ربما يكون نوعاً من التحدي لحساده ولسيف الدولة . وإلا فقد كان يمكنه أن يعبر عن ذلك بطريقة أخرى ، ولكن يبدو أن المتنبي لايعبأ بذلك مادام يخدم الهدف الذي يريده وللنقاد أن «يسهروا ويختصموا» حول معانيه وأبنيته .

والناحية الأخرى التي ابتدأت في البروز بعد مجموعة تلك الأبيات التي كانت تتعادل فيها النسب بين المتنبي وسيف الدولة ، هي بروز نغمة (الأنا) بل المبالغة والتضخيم في وصف (الأنا) . فالمتنبي بدأ يركز الحديث على نفسه . وكأنه بعد أن حاكم سيف الدولة وبين موقفه منه التفت إلى الحاضرين ليقول لهم : هل تعرفون من أنا ؟ أنا الذي نظر الأعمى . . . وهكذا راح يحدثنا عن نفسه مشيداً بها وممجداً لها . ولعل هذا التمجيد أو الإشادة جاءت بمثابة العزاء لنفسه عن الخسارة التي مني بها بفقد سيف الدولة ، أو بتعبير آخر ، راح يرفع من معنوياته وينتشل نفسه من وهدة الحضيض الذي آلت إليه نتيجة لظلم سيف الدولة . لذلك أخذ يبث في نفسه معاني القوة والعزيمة ليحدث توازناً بين الذات والموضوع ، وليحفظ لذاته البقاء بين الأمواج المتلاطمة التي تكاد أن تطيح به . يقول :

وجاهل مده في جهله ضحكي — حتى أتته يد فراسة وفم
إذا نظرت نيوب الليث بارزة — فلا تظنن أن الليث مبتسم
ومهجة مهجتي من هم صاحبها — أدركتها بجواد ظهره حرم

رجلاه في الركض رجل واليدان يد وفعله ما تريد الكف والقدم
ومرهف سرت بين الجحفلين به حتى ضربت وموج الموت يلتطم

وقال :

صحبت في الفلوات الوحش منفرداً حتى تعجب من القور والأكم

يقال بأن المتنبي يلمح هنا إلى مصدر الإهانة التي لحقت به والتي تقول بعض الأخبار إن محاولة اعتداء جرت عليه من بعض جلساء سيف الدولة وأن سيف الدولة لم ينتصر له(٥) ، فكانت شكواه وتظلمه للبرود الذي قابل به سيف الدولة احتجاجه . ولكن القصيدة تسير في تيار نفسي واحد وهي إذ تشير إلى ذلك توقفنا هنيهة ، ويبدو أن الإشارة هنا ليست إلى تلك المحاولة وإنما إلى سيف الدولة ، فسيف الدولة هو الجاهل وهو الذي يشتكي الشاعر منه ، أما أولئك الآخرون فما هم إلا «زعنفة» كما سيقول . فسيف الدولة عندما يبدي العداوة له فإنما هو جاهل به ، ويرى المتنبي أنه ليس بالصيد السهل فما سكوته إلا ضحك على سيف الدولة . وإن وراء الضحك وحشاً كاسراً يدمر الأعداء ويسحقهم (أتته يد فراسة وفم) . فهذا الوحش حين يضرب يضرب ضربات قاضية فتمزق أياديه ويقطع فمه . والتأكيد هنا واقع على صفة المبالغة «فراسة» التي حين تفترس تفترس أشد افتراس وأوجعه . ولا يكتفي بذلك بل يعمد إلى التمثيل لتقرير الصورة وتثبيتها ويلاحظ ذلك في أبيات أخرى ، فهو يقول :

إذا نظرت نيوب الليث بارزة فلا تظنن أن الليث يبتسم

فالمتنبي أسد لأنه يظهر للأعداء سهل الجانب ، ولكن حين يلحقه إيذاء فإنه ينقلب وحشاً كاسراً ، كالأسد الذي يبدو مبتسماً حين تظهر أنيابه بل يبدو مستعداً للانقضاض .

ثم ينقلنا إلى صورة أخرى من صور شجاعته ، إنها مطاردته لعدو يريد قتله . ولكن هذه الصورة تبدو مضطربة وفيها تعثر «ومهجة مهجة من هم صاحبها» يريد أن يقول : رب إنسان كل همه أن يقتلني استطعت أن أقتله فهو هارب مني وأنا ألحقه بفرس قوى أصيل . لماذا التركيز على عملية الفرار ؟ أهو اللاشعور يعرض نفسه وهو يخطط للفرار من حلب ؟ أليس هذا التعثر أو التلكؤ في التعبير دليلاً على ملامسة اللاشعور ؟ ثم لماذا استخدم كلمة (حرم)؟ لماذا هذا الإلحاح الشديد على صورة العدو التي يخلقها لذلك الفرس الذي لم يمتطه غيره (ظهره حرم) ؟

إنه يبدو أن ذلك التعثر قد جاء نتيجة عدم صدق المتنبي مع نفسه في هذه الصورة ولذلك نجده يتصور الحالة النفسية التي مر بها وهو هارب من حلب بحيث صارت رجلاه رجلاً ويداه يداً واحدة . إنه هنا يشير إلى عزمه الهرب «لئن تركن ضميراً . . .» بل إن «ظهره حرم» تأكيد على معنى عدم اللحاق به إذ إن هذا الفرس محرم على غيره فهو مميز من بين جميع الخيل . ومع ذلك فإن هذه الصورة لاتعني أنه جبان[٦] بأية حال من الأحوال ، لإنه رجل يفكر كثيراً قبل الإقدام على أمر ما ، ويدرس الأمور ويزنها . وكيف يكون جباناً وهو يقول : «نظرت إليه والسيوف دم»؟ لعلهم يقولون إن ذلك ماهو إلا تعويض عن جبنه بتمثله الشجاعة ، ولكن كيف نقول في الأبيات التي بعد ذلك وهو يصف نفسه مشتبكاً في قتال فعلي «ومرهف سرت . . .»؟ لأولئك أن يقولوا بما يرون ولكن الآخرين الذين وصفوا المتنبي بالبطولة والشجاعة والرجولة لهم رأيهم أيضاً . إن رواية العكبري تخلو من البيت القائل : «سيعلم الجميع . . .»[٧]. ويبدو أن هذا البيت جزء من القصيدة وفي مكانه الصحيح لتناسقه وتجانسه صوتياً مع البيت الذي يليه . ثم إنه يحمل معنى التهديد الذي صعدت به نغمات المتنبي في هذه الأبيات . إن قدرة المتنبي على منح التصوير الحيوية والحركة هي من مميزات شعره وسبب من أسباب خلوده كما يتضح من هذا البيت ، وهو يرينا المتنبي يدخل المعركة بكل ثقة واعتزاز وعزيمة فيقتل ويخرج من المعركة منتصراً . ثم له ميزة أخرى وهي إحساسه الرائع بموسيقية الألفاظ : «مرهف» فهو يرينا ذلك السيف الذي يحمله حاداً رقيقاً .

أما قوله : «سيعلم الجميع»، وإشارته إلى أنه خير من تمشي به قدم ، فهو إن دل على شعور نرجسي فهو يعبر عن شخصية قوية متماسكة واثقة بنفسها أشد الثقة ، إنها شخصية لاتلين ولاتهتز مهما كانت المواقف والتحديات . أما البيت الذي يقول فيه :

فالخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فإنه من الأبيات التي تؤثر عن المتنبي ، وقد قيل إنه سبب موته فهل هذا البيت الذي وصف المتنبي به ، هذه الصفة أم هناك أبيات أخرى ؟ لاشك أن شعر المتنبي فيه الكثير من ذلك ، أما سبب ذيوع هذا البيت وانتشاره فإنه يرجع في ظني إلى التقطيع الصوتي والتقسيم اللفظي الحاصلين فيه ، هذا علاوة على خلو تفعيلاته ماعدا الضرب والعروض من الزحاف .

لقد اقترب هذا البيت من صورة الإنشاد العلني مما حفظ له السيرورة والدوام ثم هناك هذه الموسيقى الحاصلة من تكرار الياء في (الخيل/ الليل/ البيداء/ السيف) وجاءت المدات في

(بيداء/ قرطاس) تقوية لتلك الموسيقى . أما الشدة الناشئة عما يعرف بـ (ال الشمسية) فقد ناسبت مايقصده من قوة في هاتين الكلمتين . وهناك رواية للبيت أخرى تأتي بـ «الضرب» بدلاً من «السيف» و«الطعن» بدلاً من «الرمح»[٩] ولكن هاتين الكلمتين غريبتان عن موسيقى البيت العام حيث إن الضاد والطاء المجهورتين ثقيلتان ولاتشبهان رقة الحروف التي تكون السيف والرمح .

إن المتنبي صادق مع نفسه فنحن لا نحس بتعثر في البيت الذي يقول فيه «صحبت في الفلوات. . .» كما أحسسنا به في «ومهجة مهجتي. . .» وذلك لأنه يقول : إنه إنسان يعيش وحيداً (منفرداً) ، ويقول : «صحبت الوحش» لأنه يعبر عن حال الوحدة والوحشة التي يعيشها ، فهو دائماً يعيش في غربة،الغربة من أهم مصائب المتنبي ، غربة بين الناس فهو لا يأمنهم ولا يصاحبهم حتى في مواضع الهلاك ، إنما يصاحب الوحوش لأنها تحمل مايحمل من معاني الشجاعة والصراحة والإباء .

بعد هذا التأكيد على الذات ، وبعد إبراز شخصيته على هيئتها وكما هي عليه دون لبس أو غموض ، يعود إلى محور قضيته الأساسي ، وهو الفراق والابتعاد عن سيف الدولة . إنه يعمد إلى النغمة العالية المتمثلة في (ياء النداء) حينما يوجه الحديث إلى سيف الدولة . وهو يتخذ من هذه الطريقة وسيلة للعودة إلى محور الموضوع الأساسي . فهكذا بعد أن انتهى من القطعة التي أشاد فيها بنفسه عاد إلى أداته (ياء النداء) لمخاطبة سيف الدولة رمز المأساة وموضوعها :

يـامن يعـز علينـا أن نـفـارقهـم وجـداننـا كـل شيء بعـدكم عـدم

تكمن في هذا البيت مأساته المستقبلة ، إنها الشعور بالغربة والوحشة والضياع . فمما لاشك فيه أن الرجل الذي ظن أنه قد ألقى عصا تسياره عند سيف الدولة يجد نفسه الإنسان الذي يعود إلى الوضع السابق وضع الترحل والتنقل هائماً على وجهه باحثاً عن الأمان النفسي ، خاصة وأنه كما يبدو من شعره في سن لا تساعده على التمرد والثورة كما كان في السابق ، ولذا نجده متمالكاً نفسه يصدر أقواله عن تثبت وتريث كما تدلنا الأداة (حتى) في قوله : «وجاهل. . .» فهو لم يضرب فور الاعتداء عليه بل انتظر حتى يتبين الأمر . إنه يعلن هنا أن كل شيء لا شيء بعد فراقه سيق الدولة ــ «وجداننا كل شيء بعدكم عدم». ركز على كلمة «كل» ليبين أنه لم يبق شيء جدير بالاهتمام بعد سيف الدولة . وتنبي كلمة (يعز) عن

مدى التأثر الذي لحق به لاتخاذه هذه الخطوة خطوة الفراق ، كما تبين المفارقة المحزنة بين هذا الحب الغامر والقضاء على هذا الحب في لحظة من لحظات النزاع البشري . وقد جاءت كلمة (عدم) مشكلة النتيجة الحتمية لذلك . كما جاء المصدر (وجدان) مضافاً إلى (نا) المتكلمين ليعطي الشمولية للمعنى وليجعله أقوى من كونه فعلاً يدل على زمان ، فذلك المصدر يحمل في طياته كل معاني الفناء واللاوجود ويتضح من هذا البيت أيضاً أنه لم يجد بدا من فراق سيف الدولة فهو إذ يتخذ ذلك القرار الصعب يتخذه وهو يشعر أن ما سيأتي سيكون لا شيء بعد ذلك . يقول :

ماكان أخلقنا منكم بتكرمة   لو أن أمركم من أمرنا أمم

لقد لمس من سيف الدولة الجفوة ، وعلل سببها بافتراق خطيهما فقد أصبحا متباعدين من الآن . وجاءت (لو) لتجعل إمكانية الإصلاح أمراً غير وارد ومستحيلاً . وقد ساعد تكرار الميم في كل هذه الحروف على تداخل الكلمات كما ساعد تكرار (أمر) على تصور وحدة العلاقة التي أصبحت الآن في حكم المنفصلة . إن مايطلبه من سيف الدولة لم يكن غير (الكرامة) أي حسن المعاملة كما قال سابقاً (يا أعدل الناس إلا في معاملتي) . وقد جاء أسلوب التعجب (ماكان أخلقنا منكم بتكرمة) تلهفاً وحسرة على هذه الناحية بالذات في العلاقة بين الاثنين . ثم قال :

إن كان سركم ماقال حاسدنا   فما لجرح إذا أرضاكُمُ ألم

لقد عاني المتنبي من حساد أرادوا إفساد العلاقة بينهما . ولم تكن تلك المحاولة سهلة ، فقد كانت جرحاً أدمى قلبه . إنه جرح في نفسه وليس الجرح الذي يربطه الرواة بشج في وجهه لأن ابن خالويه رماه بمفتاح . فهذا الجرح سريع البراء ، أما الجرح الأعمق فيتمثل في إحساس الشاعر بتواطؤ سيف الدولة مع الجناة . ويبدو أن قوله «فما لجرح إذا أرضاكم ألم» القصد منه أن هذا الجرح غائر في أعماق قلبي بحيث إنه أمات فيَّ حس الشكوى والألم لأني لو اشتكيت فلن تنفع الشكوى لأنكم مسرورون به ، وإني بذلك لا أستطيع التعبير عن آلامي ، وقد جاءت (جرح) نكرة ليقصد بها أي جرح . وقد يوجه هذا المعنى على نحو آخر إن «سررتم بقول حاسدنا وطعنه فينا فقد رضينا بذلك إن كان لكم به سرور ، فإن جرحاً يرضيكم لا نجد له إلمّاً ، لأن كل سرورنا في سروركم ورضانا في رضاكم»(١٠) ومع أن المعنى يحتمل التوجيهين ، فإنه يبدو أن التوجيه الأول يؤكد مبدأ الاحتجاج الذي يحاول أن يبرزه في هذا

الموقف لا مبدأ الاستسلام للكارثة ، مما ينسجم انسجاماً تاماً مع شخصيته الرافضة علنا حتى هذا الوقت على الأقل ، ودليل هذا الاحتجاج والرفض قوله :

وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة	إن المعارف في أهل النهى ذمم
كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم	ويكره الله ماتأتون والكرم
ما أبعد العيب والنقصان عن شر في	أنا الثريا وذان الشيب والهرم

لقد صرح هنا تصريحاً واضحاً بأن سيف الدولة كان يتدخل تدخلاً شخصياً لإيذاء صاحبه (كم تطلبون)[11] . ولو قيل كما قال محمود شاكر بأن هذه وشاية للعلاقة السرية بين المتنبي وخولة أخت سيف الدولة ، مع أن محمود شاكر نفسه يقول بأن سيف الدولة كان على علم بهذه العلاقة[12] فإننا لن نجد سنداً لذلك في هذه القصيدة والتي كانت تتويجاً للأزمة بين الاثنين . إن الإشارات لاتتعدى («العيب والنقصان» في «شرفي»)، والعيب والنقصان هنا يحتملان (قول حاسدنا) ، ولكن هذا القول/ الوشاية لاتشير إلى تلك العلاقة ، ولكنها تشير إلى النمائم والوشايات التي تفسد العلاقات البشرية المتآخية في شتى أمور الحياة حتى التوافه منها ، وليست حكراً على علاقة الحب السرية بين المتنبي وخولة مع علم سيف الدولة بها . ولكن هذا أيضاً لايبرر القول بأن تهمة (السقاء) مهنا أبيه كانت سبباً في ثورته ، لأنه لاشك أن سيف الدولة كان على علم بعلوية المتنبي كما يقول محمود شاكر[13] وهنا ملاحظة هامة في هذا السياق إذ لماذا قال «يكره الله والكرام». لنفترض أنه يقصد بالكرم أصله العلوي ، وهذا يأبى أن يكون المتنبي ابن سقاء ، ولكن لم يكره «الله» جل جلاله ؟ أهو الشعور بالنرجسية كما يقول اليوسف مما يقبله البيت الذي يليه «أنا الثريا» وفي هذا سند لتعجب اليوسف من أن المتنبي لم يدع الألوهية ، وقد ادعى النبوة؟[14] يمكن أن يفسر إدراج لفظ الجلالة «الله» هنا على أن الشعور بالعلوية والانتماء إلى آل البيت هما اللذان دفعاه إلى ذلك بالإضافة إلى أن الثقة المفرطة في ذاته هي التي أقنعته بأن خلوه من العيب والنقصان كان فطرياً فيه وليس مكتسباً . ولذا فهو يضع صورته حية أمام غيره بهذا المزج الذاتي بينه وبين الثريا ، والإشارة إلى العيب والنقصان بـ «ذان» خالية من هاء التنبيه احتقاراً لهما وترفعاً عنهما ، فكأنه المتنبي يقف معلناً عن نفسه بكبرياء قائلاً «أنا الثريا» ثم يستخف بالمشار إليه مرسلاً صوته في لا مبالاة فيقول «ذان الشيب والهرم» . ويعود لنا الإيقاع نفسه في البيت السابق الذي يقول فيه «فالخيل والليل. . .» الياء الساكنة والمدات ، فنحسه هنا في قوله «ماأبعد الشيب/ والنقصان. . .» مما يعطي القصيدة

جو اً ايحائياً جميلاً . بل إن جواً مشابهاً يتردد في لفظ الجلالة «الله» بهذا المد الطويل وتفخيم اللام نتيجة للتضعيف . لقد واجه سيف الدولة مواجهة تقريع ولوم بل مواجهة إدانة في قوله «إن المعارف في أهل النهى ذمم» . فالتأكيد وصياغة القول صياغة الحكمة يحمل في طياته معاني نكران الجميل والغدر ، إذ يقول : أنتم ياسيف الدولة ليست لكم عهود ولا ذمم وإلا لحفظتم لنا معرفتنا بكم وعلاقاتنا معكم[١٥].

لقد كان يعاني من أزمة علاقة إنسانية بينه وبين سيف الدولة وكان يبكي على هذه العلاقة ولم يكن في هذه اللحظات يهمه المال أو الغنى . إن مسألة الشح التي رمي بها قد تكون صحيحة في مجملها ، ولكن علاقته مع سيف الدولة كانت أسمى من ذلك ، بل كانت ترفعاً عن ذلك . إنه يعلم أنه حين يذهب إلى غيره سوف يجد المال ، ولكنه ارتبط بسيف الدولة ارتباطاً روحياً قلبياً ، فكل شيء بعد ذلك عدم ـ كل شيء ـ وهل المال إلا جزء من ذلك الشيء؟ ولهذا فهو إذ يقول :

ليت الغمام الذي عندي صواعقه   يزيلهن إلى من عنده الديم

لايقصد المال عند غيره من الشعراء بل هو رمز لعلاقة سيف الدولة بأولئك الشعراء ، وهو بالتالي يرمز بالصواعق إلى علاقته هو بسيف الدولة . وكم هو قاس ذلك التعبير بـ «عندي صواعقه» . إن تقديم الظرف (عندي) وتغيير النغمة من (نا المتكلمين) إلى (ياء المتكلم) جعل وقع الصواعق منصبة عليه وحده وكائنة فيه . وتحس بهذه المفارقة (عندى صواعقه/ المتنبي) و (عنده الديم/ أعداء المتنبي) . الديم خير وبركة ومحبة وود ، أما الصواعق فالغضب والشر والعذاب وهي إشارة إلى قوله «أعيذها نظرات» . لقد بلغ اليأس به مبلغاً كبيراً إذ ألجأه إلى استخدام (ليت)، فهو يتمنى شيئاً لن يحصل عليه لذا لم يجد بدا من القول :

أري النوي تقتضيني كل مرحلة   لاتستقل بها الوخادة الرسم
لئن تركن ضميراً عن ميامننا   ليحدثن لمن ودعتهم ندم[١٦]

دفعه اليأس من تجديد العلاقة إلى الرحيل . ولكنه رحيل المرغم ، فهو يريد الاستقرار والبقاء بجنب سيف الدولة ولكن سيف الدولة غير راغب في بقائه ، ولذا فما عليه إلا أن يواصل طريقه الذي كتب عليه . إن «النوى» رمز الغربة والاغتراب ملازمة له ترافقه أينما ذهب «تقتضيني كل مرحلة»، كلما حل بمكان جاءه ماينغص عليه مقامه فيبدأ الرحلة من

جديد . إنها لوعة يحسها في داخله ولكن ذلك قدره . لقد تناقلته الأسفار والرحلات المفروضة عليه وهي أسفار ورحلات ليست سهلة إنها شاقة مميتة بحيث إن «الوخادة الرسم»، تلك الإبل التي تخد الأرض وخداً أي تطويها طياً لقوتها وترسم لشدة وطئها وسرعتها آثارها على الأرض لاتحمل تلك الأسفار ، فكيف يحتملها الإنسان؟ وهو مع ذلك ، لن يرضى بالضيم ، وسوف يتابع طريقه المفروضة عليه ، ولكنه سيورث الندم عند سيف الدولة لقد أقسم بذلك «ليحدثن» وأكد قسمه مع حزن على ذلك مما يبينه تكرار النون والتنوين في البيت «لئن تركن». وبهذه الجرأة واجه سيف الدولة معلناً أنه سيرحل عنه بكل شجاعة واعتزاز ، فكيف يتهم إذن بالجبن والخور؟ إن شجاعته كلها تدل على شجاعة نادرة وثقة بالنفس عالية فهو لم يتضرع أو يبك خوفاً وطمعاً وإنما أبدى حزنه واستياءه من تصرفات سيف الدولة ، وأظهر تأثره الشديد على علاقته الإنسانية التي تربطه به .

يقول :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ... أن لاتفارقهم فالراحلون هم
شر البلاد مكان لاصديق به ... وشر ما يكسب الإنسان مايصم
وشر ما قنصته راحتي قنص ... شهب البزاة سواء فيه والرخم
بأي لفظ تقول الشعر زعنفة ... تجوز عندك لا عرب ولا عجم
هذا عتابك إلا أنه مقة ... قد ضمن الدر إلا أنه كلم

خاتمة تبين النهاية التي كان يجب أن تنتهي إليها القصيدة وتنتهي معها في الوقت نفسه العلاقة بسيف الدولة . وقد جاءت كلمة «شر» ثلاث مرات مؤكدة إحساسه بذلك الشر الذي يبيته سيف الدولة له والذي تكشف عنه عيناه ، وكذلك الشر الحاصل من أعداء المتنبي . كما يؤكد الهجوم الصريح على سيف الدولة والذي كان يتردد في ثنايا القصيدة وبخاصة التأكيد على صفة اللامبالاة عند سيف الدولة والتي تعادل الجهل وعدم القدرة على التمييز فيتساوى عنده «الأنوار والظلم» وتتساوى عنده «البزاة والرخم» أو يتساوى عنده من «يسهر الخلق» في دراسة شعره وهو «الثريا» وهو «البزاة» مع من هم «زعنفة» و«رخم» .

ومع ماتحمل القصيدة من معاني التهجم على سيف الدولة ، فإن المتنبي يعبر عن ذلك بـ «العتاب» لأنه لايزال يحس في قرارة نفسه أنه حين يخاطب سيف الدولة فإنما يخاطبه مخاطبة الند للند وليس مخاطبة المستضعف المستذل لمن هو أقوى منه . إنه برغم هذا الهجوم القاسي فإنه يلمح إلى أنه عتابه صادر من محب لابد له من البوح بمكنون نفسه فهو «مقة» أية مودة لأنه لابد

من المصارحة والمجاهرة بذلك . وهو لاينسى التأكيد على أن شعره الذي غفل عنه سيف الدولة «در» مع أنه كلام وفي هذا إشارة إلى أولئك الشعراء الذين لايتجاوزون بشعرهم الكلام ، ولكنه ليس كلاماً مفهوماً إنما هو كلام الهذر والهذيان ، إنه كلام من هم «لا عرب ولا عجم» .

لقد تدفقت القصيدة البيت تلو الآخر يربطها رباط نفسي عميق يتقاسمه الحزن والغضب على تصرفات سيف الدولة . وظلت في مسارها كله تتنازعها هاتان النغمتان ممتزجتين ومتداخلتين بحيث يخفف الحزن كثيراً من غضبه ويغلف ذلك الغضب بالإشارات والتلميحات التي تبتعد عن المباشرة والتقريرية . كما ربطت الأبيات موسيقى هادئة تتهاوج تماوجاً جميلاً وتسير سيراً رقراقاً ، كانت النون والميم والتنوين التي تحدث غنة في رناتها أقوى النغمات . أما النبرات المحكمة فيها فكانت من نصيب الحركات وبالذات الفتحة ، وقد سايرت الجو النفسي العام الذي كان يعتمل في أغوار نفسه . القصيدة على كل حال تعبر عن انفعال بموقف عاطفي مشحون بالأسى والحسرة ، ولكن شخصيته القوية تحكمت في مسار ذلك الانفعال فكان فكره يتدخل لتوجيه والاستفادة منه .

والآن ، هل لنا أن نتساءل عن سبب الجفوة أو بالأحرى الخصومة بين سيف الدولة والمتنبي ؟ لقد طرح هنا رأي محمود شاكر وهو مع وجاهته غير مقنع لأنه لايتلاءم مع نفسية المتنبي وماعرف عنه من كبرياء وغطرسة واعتداد بالذات ومحافظة على مكانته وقيمته . إذن ، ماالسبب في هذه الخصومة ؟ لقد صرح في هذه القصيدة بأشياء لعلها هي السبب فقد قال :

أعيذها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
وما انتفاع أخي الدنيا بناظره إذا استوت عنده الأنوار والظلم
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

وقال :

وبيننا لو رعيتم ذلك معرفة إن المعارف في أهل النهى ذمم

وقال :

وشر ما قنصته راحتي قنص شهب البزاة سواء فيه والرخم

بأي لفظ تقول الشعر زعنفة تجوز عندك لا عرب ولا عجم
هذا عتابك إلا أنه مقة قد ضمن الدر إلا أنه كلم

وقد قال :

إن كان سركم ماقال حاسدنا فما لجرح إذا أرضاكم ألم

ماذا قال ذلك الحاسد ياترى ؟ ألم يقل إن المتنبي يقول عن سيف الدولة إنه لابصر له بالشعر ، وإنه عنده سيان الغث والسمين ، وإنه لايعرف مقدار الشعر وإنه يميز بين الجيد والرديء ، وإنه لذلك لايهتم بأحد من الشعراء ، إلى آخر تلك الأقوال التي تنسب سيف الدولة إلى البلادة واللامبالاة؟ لقد ركز على الأقوال التي تصف سيف الدولة بعدم التمييز والإدراك وبخاصة فيما يخص الشعر والشعراء إذ يجوز عنده كل ذلك فهم في الحكم سواء[١٧] أليس كذلك مدلول نفساني كبير في أن سبب ثورة المتنبي كانت لهذه النظرة الضيقة من سيف الدولة؟[١٨] لقد جرد سيف الدولة من القدرة على التفرقة بين شعر شاعر عظيم وقول شعرور ، ولكنه احتفظ له بصفة البطولة والشجاعة وردد ذلك وأكده في اعتذاره عن قتل أعدائه . وهذه الصفة التي وجدها المتنبي مشتركة بينه وبين سيف الدولة ، ولكنه نحاه عن فهم الشعر وجعله أشد من الأعمى الذي لاينظر بعنيه لأنه أعمى بصيرة . ولعل هذا الوصف القاسي جداً يشبه إلى حد بعيد قوله «وجاهل» إن قبلنا نسبة الجهل إلى سيف الدولة والجهل بالتأكيد وليد البلادة . ومثله قوله عن عدم تمييزه بين (الشحم) وال (ورم) لبلادته وجهله وقلة إدراكه . ويبدو أن هذه الأقوال بلغت سيف الدولة فأحفظته على شاعره وأوغرت صدره عليه ، فظهر ذلك عليه من نظراته «أعيذها نظرات» وراح يتصيد عيوبه وأخطاءه «كم تطلبون لنا عيباً» لعله يظفر بذلك وعندها كان محتماً عليه أن يغادر بساط سيف الدولة إلى غير رجعة ، فهو وسيف الدولة سواء ولن يقبل الإهانة أو الذل منه . وهذا مايفسر مجيء الضمير (نا) عائداً على المتنبي والضمير (أنتم) عائداً على سيد الدولة ، فالخصومة بين اثنين متكافئين في القوة والمكانة . كما أنه من المهم أن نتنبه إلى أن المتنبي يتحدث بالفعل الماضي حين يتحدث عن الجانب الإيجابي مع سيف الدولة ، وبالفعل المضارع حين يتحدث عن الجانب السلبي معه ، وذلك انعكاساً للأوضاع التي يعيشها الطرفان مثل قوله «قد زرته. . .» وقوله «فكان أحسن. . .» . فماضيه مع الشاعر خير من حاضره معه .

الحواشي :

(١) «ديوان أبي الطيب المتنبي» : شرح أبي البقاء العكبري ، تصحيح مصطفى السقا وآخرين ، مط ـ مصطفى البابي الحلبي ـ مصر ١٩٢٦ . جـ ٣ ص ٣٦٢ ـ ٣٧٤ .

(٢) محمد مهدي علام ـ «المتنبي بين نفسيته وشاعريته»، مجلة مجمع اللغة العربية (القاهرة، ١٩٦٢) جـ ١٥ ص ١٨.

(٣) محمود محمد شاكر، «المتنبي»، المقتطف، م٨٨ ١٩٣٦ ، ص ٨٠ ـ ٨٨ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٢٩ ـ ١٤٤. قارنة بـ : شفيق جبري ، «المتنبي»، مجلة المجمع العلمي العربي (دمشق)، م ١٠ ١٩٣٠ ص ٦٧٥ ـ ٦٧٦ .

(٥) جبري «المتنبي»، ص ٣٩٩ ـ ٤٠١، ص ٤٤٩. محمود شاكر، ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

(٦) يقول د. صلاح الدين المليك: «أنشد المتنبي القصيدة الميمية معتذراً، وكان مجلس سيف الدولة حافلاً . . . وكان رد الفعل ضربة أسالت الدم من وجه الشاعر فماذا فعل؟ هل دفعته نفسه التي أفاض في الإشادة بها إلى الإحتجاج ورد الإساءة بالقول أو الفعل؟ هل أسعفته شجاعته التي تغني بها وقوة عزيمته التي أعلنها بالكف عن الإنشاد والخروج احتجاجاً على ماحل به وصوناً لكرامته التي امتهنت؟ كلا لم يحدث شيء من ذلك ، إنما استمر أبو الطيب ينشد :

إن كـان سركم مـاقـال حـاسـدنـا فـما لجـرح إذا أرضـاكـم ألم

لم احتمل الشاعر كل هذا؟ ولم رضى بالمهانة والمذلة وهو التياه الفخور المعتد بنفسه؟ هل استخذى وجبن عن أن يفعل شيئاً إلا أن يعلن الرضا التام بما حدث . . . وها نحن أولاً نراه يضرب في مجلس سيف الدولة ولايحرك ساكناً «ـ بين شخصية المتنبي وشعره» ، مجلة آداب جامعة الخرطوم، ع ٣ ١٩٧٧، ص ٤٣، قارنه بـ : البدوي الملثم البدوي الملثم ـ البيان «الحرب والجندية في شعر المتنبي» س ١ ع ٣ م ١ ـ ١٢ جون ١٩٦٦ ص ٢٨ ـ يوسف اليوسف «لماذا صعد المتنبي» (المعرفة السورية) القسم الأول س ١٧ ع ١٩٩ سبتمبر ١٩٧٨، ص ٨٥ ـ ٩٢ .

(٧) ناصيف البازجي ، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب ، دار صادر بيروت (ب ـ ت) م ٢ ص ١٢٠.

(٨) اليوسف ، «لماذا صمد المتنبي»، القسم الأول ، المعرفة (السورية) ص ٦٨ ـ ٦٩. القسم الثاني ع ٢ أكتوبر ١٩٧٨ ص ١٠٩ ـ ١٤٤.

(٩) أبو علي الحسن بن رشيق ، العمدة ، تحق : محمد محي الدين عبد الحميد ، مط ـ السعادة ـ مصر ، ط . ثانية ١٩٥٥ جـ ١ ص ٧٥.

(١٠) عبد الرحمن البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، القاهرة ـ مط ـ الاستقامة ، ط. الثانية ١٩٣٨ ، حـ ٤ ص ١١٣.

(١١) علام ، ص ٢١.

(١٢) محمود شاكر ، ص ١٣٤، ص ١٣٦.

(١٣) المصدر السابق ، ص ٧ ـ ١٠، ص ٢٠ ـ ٢٢، ص ١٠٨ ـ ١١١.

(١٤) اليوسف ، القسم الثاني ، ص ١٣٣.

(١٥) جلال الدين الخياط ، «الأدب العربي ليس مقروءاً»، الآداب ، س ١٥ ع ٦ حزيران ١٩٦٧، ص ١٢.

(١٦) ألم يقل هو: إن النوى تقتضيه كل مرحلة بحيث لاتحتملها الإبل التي صفتها كذا وكذا ، ثم عاد فقال : إن تلك الإبل ستترك ضميراً عن ميامنهم ، أليس في ذلك تناقض كتناقضه في : «أنام ملء جفوني . . . .»؟؟!

(١٧) الخياط ، ص ١٢.

(١٨) المصدر والصفحة السابقتان .